مقتطفات من أقوال

العلامة القديس ترتليانوس

"عن التوبة"

مليكه حبيب يوسف

يوسف حبيب

مقتطفات من أقوال

العلامة القديس ترتليانوس

"عن التوبة"

ترجم النص اللاتيني الى الفرنسية « بيير دى لابريول »

Pierre de Labriolle

الاستاذ بجامعة فريبورج بسويسرا

مترجم عن كتابه De Praescriptione Hereticorum

وكتابه De Penitentia

من مجموعة Textes et documents pour l'étude historique du Christianisme publiés sous la direction de Hippolyte Hemmer et Paul Lejay.

Texte latin, trad, Fse , intr., et index par Pierre de Labriolle Professeur à l'Université de Fribourg, (Suisse) .

Paris 1907

مليكه حبيب يوسف

يوسف حبيب

الإيمان والبحث

يقول: طالما أن المسيح قد جاء بتعليم واحد ثابت ، فيمكننا أن نبحث طالما لم نجد هذا التعليم . ولكن متى وجدناه فليس هناك شيء نبحث عنه . أن البحث في حد ذاته ليس له قيمة. يلزم ضرورة أن ينتهي إلى نهاية . وهذه النهاية هي يسوع المسيح .

وبالنسبة للمسيحي ليس من الإيمان أن يتساءل باستمرار فيما آمن به .

كم يكون الإيمان النقي البسيط أفضل من تلك الأبحاث الباطلة التي لا طائل وراءها سوى الغرور . ما المنفعة من التباحث مع أناس يعترفون بأنهم ما زالوا يبحثون ؟ طالما كانوا يبحثون ، فهم ليسوا راسخين في شيء . فأية منفعة في التعامل معهم ؟

كان ، قانون الاثني عشر لوحاً ، قد قرر أن كل من استعمل أرضاً لمدة سنتين ، أو أي شيء آخر لمدة سنة واحدة ، يصير مالكاً شرعياً له . وكان هذا القانون يخص المواطنين وحدهم . وكان مسموحاً لكل من يمتلك أرضاً . بطريقة مشروعة ، وتظل في ملكيته لمدة عشر سنوات على الأقل ، أن يرفض كل دعوى من المالك القديم .

ونقل ترتليانوس هذا الإجراء إلى الناحية اللاهوتية . أن الهرطقة يتخذون لأنفسهم حق المناقشة في الكتب المقدسة فهل من حقهم أن يمسوها ؟ أن الكتب المقدسة ملك الكنيسة الجامعة . فقد كلف المسيح الرسل بالبشارة بتعاليمه ، وسلم الرسل هذه التعاليم إلى الكنائس الرسولية ؛ ومنهم وصلت إلى العالم أجمع .

ما مفهوم الهرطقة ؟ انها ثمرة تحاسر العقل البشري ، يعتقد أنه يستطيع أن يصل إلى الحق بقوته وحده . لكن المسيحية ليست موضوع مناقشة طالما وصل الإنسان إليها ، وعليه أن يثبت فيها ولا يضعها موضع بحث . فإن الذين يحسون حقاً بإيمانهم لا يشعرون بالحاجة إلى اثباته لأنفسهم .

ولا يجب أن تنفعل من وجود الهرطقات لأن حدوثها سبق أن أنبئ به ؛ كما لا يجب أن تنفعل من أن الهرطقات تقلب إيمان البعض لأنه ليس من هدف سوى اختبار إيمان الناس .

ان الحمى تسبب الألم وتجلب الموت ؛ ونحن لا نندهش لوجودها كما لا نندهش لأنها تقتل الإنسان ، فمأتها ذلك .

وبما أن الهرطقات هدفها زعزعة الإيمان والقضاء عليه ، فيجب علينا بدلا من أن نخاف من سلطانها ، أن نخاف أولا من وجودها .

كل يعرف أن الحمى ضربة من الضربات ، ونحن نكرهها أكثر من أن ندعش منها ، فنحافظ على أنفسنا على قدر الامكان فيها .

أما إزاء الهرطقات التى تجلب الموت الأبدى ، فالبعض يؤثر أن يظل مأخوذاً بفاعليتها بدلا من أن يشلوا هذه الفاعلية بالابتعاد عنها ، وهو أمر فى مقدورهم . وهى تفقد كل تأثيرها إذا توقف الناس عن التعجب منها .

والعجيب حقاً ان يكون للشر قوة ذاتية ؛ أما الهرطقات فليس لها قوة إلا بالنسبة لقليلى الإيمان . قوتها فى ضعف البعض ، ويعتريها الوهن أمام الإيمان القوى .

وقد يعثر بعض الناس بسبب مكانة بعض الهراطقة . فإن كان اسقف او شماس او معلم او شهيد أيضاً يبتعد عن الاساس ، فهل معنى ذلك أن الهرطقة أصبحت حقيقة ؟ أنحكم على الإيمان بحسب الاشخاص أم نحكم على الاشخاص بحسب الإيمان ؟

« فقال الرب لصموئيل لا تنظر إلى منظره وطول قامته لأنى قد رفضته . لأنه ليس كما ينظر الإنسان . لأن الإنسان ينظر إلى العينين وأما الرب فإنه ينظر إلى القلب » ١ صم ١٦ : ٧ .

« يعلم الرب الذين هم له . وليتجنب الإثم كل من يسمى اسم المسيح » ٢ تى ٢ : ١٩ .

« كل غرس لم يغرسه أبى السماوى يقلع » مت ١٥ : ١٣ .

« ولكن كثيرين أولون يكونون آخرين والآخرون أولين » مر ١٠ : ٣١ .

« الذى رفشه فى يده وسينقى بيدره ويجمع قمحه إلى المخزن . أما التبن فيحرقه بنار لا تطفأ » مت ٣ : ١٢ .

« انظروا أن لا يكون أحد يسبيكم بالفلسفة وبغرور باطل حسب تقليد الناس حسب أركان العالم وليس حسب المسيح » كو ٢ : ٨ .

علينا أن نبحث إلى أن نجد ، ونؤمن حالما نجد . ولا أكثر من ذلك سوى أن نحافظ على ما آمنا به . ونضيف إلى ذلك أيضاً انه لا يجب أن نؤمن بشىء آخر وبالتالى لا نبحث عن شىء آخر .

وللاحظ ثلاث نقط : الموضوع ، والزمن ، والمقياس . فيما يختص بالموضوع يجب أن نرى ما يجب أن نبحث عنه . الزمن ، فى أى وقت ؟ والمقياس ، فى أية حدود .

فاذا كنا نبحث لكى نجد ، وإذا كنا نجد لكى نؤمن ، فبإيماننا نضع نهاية لكل بحث .

فاذا كنت قد آمنت بما كان يجب علىّ أن أؤمن به، وكنت بعد ذلك أتصور أنه يجب على أن أبحث عن شيء آخر أيضاً، إذن أكون فى تقديرى انى واجد شيئاً آخر، وما كان لى أن أتطلع هكذا إن لم أكن فى حقيقة الأمر انى مع مظاهر ذلك الإيمان، لم أكن اؤمن قط، أو انى توقفت عن الإيمان.

الأفضل أن نجهل من أن نعرف ما لا يجب معرفته، مادمنا نعرف ما يجب معرفته. «إيمانك خلصك» قال المسيح، ولم يقل مهارتك فى الكتب.

* * *

التوبة مصدرها الله

هناك نوع من الناس، وقد كنا من ضمنهم فيما مضى، عميان محرومون من نور الرب، لا يرون فى التوبة سوى شعور روحانى مؤلم يتولد من الندم على قرار سابق.

انهم بعيدون عن أن تكون لديهم فكرة معقولة عن التوبة بقدر ما هم بعيدون عن مصدر العقل ذاته. فالعقل من الله، وليس هناك من شيء إلا وكان بترتيب سابق من الله خالق كل الأشياء، جعلها مرتبة بطريقة معقولة؛ كما لا يوجد شيء إلا ويجب حسب إرادة الله أن نفهمه ونتأمله بعقولنا.

فيتبع ذلك أن الذين يجهلون الله يجهلون عمله ايضاً، طالما لم يكن هناك كنز فى متناول الغرباء. فإذ يسيرون فى الحياة بدون قيادة العقل، لا يعرفون كيف يتفادون العاصفة المرتقبة فوق الدهر.

ما أغنى ممارسة مؤلاء الناس للتوبة؛ ويكفى لتبيان ذلك هذا الأمر وحده، فانهم يطبقون التوبة على أعمالهم الحسنة، يندمون على أمانتهم وعلى محبتهم وعلى حسن نيتهم، على صبرهم وشفقتهم عندما يسلكون فى هذه الفضائل بسبب تأكر للجميل.

أنهم يلعنون أنفسهم لأنهم صنعوا خيراً . أما الندم على أخطائهم فانهم لا يعنون به كثيراً .

لو كانوا كأناس يعرفون الله يبدأون بتقدير فائدة التوبة ، لكانوا يمتنعون عن الخطية إذ تمسكهم مخافة الرب . فإنه حيث لا توجد مخافة لا يكون إصلاح للروح ؛ وحيث لا يوجد إصلاح روحى تكون التوبة باطلة لأنها لا تأتى بالثمر الذى جعلها الله من أجله ، أى خلاص الإنسان .

لأن الله نفسه ، بعد كل تلك الأخطاء العظيمة التى اقترفها البشر منذ آدم ، وبعد أن حكم على الإنسان وطرده من الفردوس واخضعه للموت ، عاد سريعاً إلى رحمته تعالى وخص فى ذلك العقوبة فى ذاته . فرق الصك وتمهد بالمغفرة لصنعة يديه صورته. جمل لنفسه شعباً أغدق عليه من خيراته الوفيرة ؛ وبالرغم من تمكران الشعب للجميل مرات كثيرة ، كان يحثه على التوبة فتكلم بفم الأنبياء ، ووعد بالنعمة التى بها ينير العالم بروحه القدوس فى آخر الأيام ، ورتب أن تأتى معمودية التوبة أولا حتى تكون علامة سابقة لأولئك الذين تدعوهم نعمته للموعد الذى وعد به جنس ابراهيم .

ويوحنا لا يخفى ذلك حينما يقول : « توبوا لأنه قد اقترب

ملكوت السموات » مت ٣ : ٢ ، لأن الرب كان مزمعاً أن يأتى بالخلاص للأمم حسب الموعد . وكان يوحنا السابق يبين التوبة التى تطهر النفوس ، حتى تزيل التوبة كل أدناس الأخطاء القديمة وكل نجاسات القلب البشرى التى إنطبعت فيه بالجهل ، وتطردها خارجاً . وهكذا يعد هيكل القلب لكى ينزل فيه الروح القدس ويسكنه بخيراته السماوية . وكل هذه الخيرات تتلخص فى واحد: خلاص الإنسان بعد محو الجـــرائم السابقة . هذا هو هدف التوبة ؛ انها التى تباشر مصالح الرحمة الإلهية ، لأن ما ينفع الإنسان يخدم الله .

* * *

قانون التوبـــة

وفضلا عن ذلك فان قانون التوبة الذى تتعلمه عندما تعرف الله ، له شكل محدود ؛ فلا يجب أن تعنف أنفسنا على ما فعلناه أو فكرنا فيه من الخير . ان الله لا يقر منع الاعمال الصالحة ، إذ أنها له . هو ضامنها وحافظها ، فيلزم أن يرتضيها ، وإذا كان يرتضيها فهو يكافىء عليها.

لا يهم تكرار الجميل عند البشر إذا كان يدفعنا إلى التوبة . لا يهم أيضاً العرفان بالجميل إذا كانت الرغبة فى الحصول عليه تحفزنا لان نكون فاعلين للخير .

ان ما تكسبه من شعور الشخص العارف بالجميل لكسب ضئيل جداً ؛ وكذلك خسارتنا من شعور الشخص الناكر الجميل أن هى إلا خسارة ضئيلة جداً . فان الله هو الديان الذى يجازى ويكافىء .

وتوجد خطايا جسدية وخطايا روحية . فالإنسان الذى جبل من اتحـــاد هذين العنصرين لا يمكن أن يخطىء خارج العنصرين اللذين يكونانه . وسواء أخطأ بالجسد أم أخطأ بالروح

خطيئته مشتركة ؛ كما أن الديان واحد : فكذلك يجب أن يكون دواء التوبة واحداً .

وتسمى الخطايا روحية أو جسدية لأنه إنما تقترف الخطايا بالفعل أو بالفكر . فما يقترف بالفعل يكون جسدياً ، لان الفعل كالجسد منظور ملموس . وما يتعلق بالفكر يكون روحياً لأن الفكر غير منظور غير ملموس . من ذلك يتبع بداهة أنه يجب أن تتجنب وأن تطهر بالتوبة ليس فقط الخطايا الفعلية ، بل أيضاً الخطايا الإرادية . لأننا وإن كانت طبيعتنا المحدودة لا يمكنها أن تحكم سوى الأفعال ، إذ لا تستطيع أن تتعداها إلى سر الإرادة ، إلا أنه لا يجب أن نهمل تلك الأخطاء فهى أمام الله أيضاً . فلا شىء يخفى على الله . أنه لا يجهل شيئاً ويحتفظ بالخطية ليوم الدينونة .

أليست الإرادة منبع الفعل ؟ لنفترض أن بعض الأعمال يمكن أن تعزى إلى الصدفة أو الضرورة أو الجهل : فاذا سلمنا بهذه الاستثناءات ، فان الإرادة دائماً يكون منها الخطأ . فطالما كانت الإرادة منبع الفعل ، فهلا تكون هناك عقوبة وهى العامل الرئيسى فى الخطية . انها لا تعفى من العقوبة حتى وإن حالت عقبة ما دون إتمام الفعل . فهى تعتبر مسئولة أمام نفسها ، ولا يمكن

أن نلتمس فى ذلك عذراً بسبب الأمور التى تمنع من المضى بالفعل حتى المنتهى حتى نأتى بما كنا نوى أن نأتيه .

ان الرب يدعو من ينظر ليشتهى زانياً وحقاً أنه من الخطر على النفس أن تتخيل العمل المحرم .

باطل أن تقول : « أردت ولكنى لم أفعل » . بل تمم بالفعل ما دمت تريده ، وإلا فلا تُردهُ إذا لم يصح أن تفعله . فان كان ما تشتهيه خيراً ، فاحرص على تحقيقه ، ولا تفعل الشر حتى النهاية ، ولا يجب أيضـــاً أن تشتهيه . إنك مرتبط بخطيتك مهما كان إتجاهك : إما لأنك أردت الشر ، أو لم تكمل الخير .

وبالنسبة لكل الخطايا سواء أكانت جسدية أم روحية ، بالفعل أم بالشهوة ، فان الذى قرر أن تكون المجازاة بالدينونة ، قد وعد أيضاً بالمغفرة عن طريق التوبة ، حينما قال لشعبه : « فاذا رجع الشرير عن جميع خطاياه التى فعلها وحفظ كل فرائضى وفعل حقاً وعدلا فالحياة يحيا . لا يموت » حز ١٨ : ٢١ .

وأيضاً : « حى أنا يقول السيد الرب إنى لا أسر بموت الشرير بل بأن يرجع الشرير عن طريقه ويحيا » حز ٣٣ : ١١ .

إذن فان التوبة حياة طالما هى مفضلة على الموت . إلق

نفسك عليها أيها الخاطىء الشقيه بى ، بل أقل ذنباً منى أيضاً ، لأنى أعترف بتفوق فى الخطية : إحتضن التوبة مثلما يمسك الغريق بلوح خشب للنجاة . وسوف تسندك فوق أمواج التقصير التى كنت غارقاً فيها ، وتحملك إلى ميناء الرحمة الإلهية . إنتهز الفرصة ، حتى تصير أمام الرب بعد أن كنت فيما مضى لا شىء سوى نقطة مياة أو ذرة تراب أو كوعاء الخزاف ، مثل الشجرة المغروسة على مجارى المياه ، دائمة الخضرة ، تحمل ثمارها فى حينها ولا ترى لا النار ولا المأس .

« هوذا الأمم كنقطة من دلو وكغبار الميزان تحسب . هوذا الجزائر يرفعها كدقة » أش ٤٠ : ١٥ .

« لذلك يكونون كسحاب الصبح وكالندى الماضى باكراً . كعصافة تخطف من البيدر وكدخان من الكوة » هو ١٣ : ٣ .

« وتقول لهم . هكذا قال رب الجنود . هكذا أكسر هذا الشعب وهذه المدينة كما يكسر وعاء الفخارى بحيث لا يمكن جبره بعد وفى توفة يدفنون حتى لا يكون موضـــع للدفن » أر ١٩ : ١١ .

« فيكون كشجرة مغروسة عند مجارى المياه . التى تعطى

ثمرها في حينه . وورقها لا يذبل . وكل ما يصنعه ينجح » مز ١ : ٣ .

« والآن قد وضعت الفأس على أصل الشجر . فكل شجرة لا تصنع ثمراً جيداً تقطع وتلقى في النار » مت ٣ : ١٠ .

تب عن أخطائك طالما وجدت الحق ؛ أندم لأنك أحببت ما لا يحبه الله ؛ ونحن أنفسنا لا نسمح لخدامنا إلا أن يكرهوا ما نكره .

ان تعداد فضائل التوبة يحتاج إلى مقال طويل . وسنقتصر على نقطة واحدة : أن ما يأمر الله به فهو خير ويصبح ممتازاً . وأرى أنه لا يصح مناقشة جمال الوصية الإلهية . ليس لأن الوصية حسنة يجب أن تنصت إليها ، بل لأن الله هو الذي أوصى بها . لماذا نفحص هل التوبة خير أم لا ؟ ان الله يأمر بها . وليس فقط يأمر بها بل يحثنا عليها . انه يدعونا برجاء المكافأة التي هي الخلاص . عندما يعلن بقسم : « حي أنا » فهو يريدنا أن نؤمن .

طوبى لنا ، يقسم الله من أجلنا . ولكن الويل لنا إذا كنا لا نؤمن بقسم الله . ان الوصية التي يوصي بها الله يمثل ذلك

الاهتمام ، ويوصي بها بقسم كما يفعل الناس ، تلك الوصية يجب أن نقبلها ونحفظها باحترام عميق ، حتى تبقى دائماً في يقين النعمة الإلهية ، ونستطيع أن نشترك على الدوام أيضاً في مكافأتها وفي فائدتها .

لا يجب أن نلغي التوبة برجوعنا إلى الخطية ، تلك التي أنعم بها الله علينا . فلا يمكن بعد التوبة أن نعتذر بالجهل عندما نكون قد عرفنا الرب وأخذنا وصاياه ، وتبنا عن خطايانا ثم سقطنا . فهكذا بقدر ما تحررت من الجهل تبقى مرتبطاً بالتمرد . لأنك إن كنت ابتدأت في الندم على خطاياك وبدأت تخاف الله ، فلماذا تفضل أن تقطع ما فعلته وأنت تحت سلطان الخوف ، إلا إذا كنت لم تعد تخاف؟ ان ما يهدم المخافة هو التمرد وليس شيء آخر .

فإن كان عدم معرفتنا للرب لا يعتبر عذراً يمنع عنا العقاب ، فكم يكون خطراً أن نحتقره بعدما عرفناه . وأما ذاك الذي بعد أن نال منه معرفة الخير والشر ، يرجع ثانية إلى الشيء الذي عرف أنه يجب عليه أن يهرب منه ، وإلى ما كان قد هرب منه ، فانه يهين عقله نفسه ، ويحتقر موهبة الله : يهين المعطي بتركه العطية ، وينكر الخير إذ لا يكرم وليه . كيف يرضى من أعطاه وهو لا يسر بعطيته ؟ انه يظهر أمام الرب ليس فقط كمتمرد بل أيضاً كناكر للجميل .

وفضلا عن ذلك فانها لخطية عظيمة ضد الرب أن يعود الإنسان بعد أن يكون قد أنكر الشيطان عدو الله بتوبته ، وبعد أن يكون اخضعه الرب هكذا يعود فيقيمه مرة أخرى بسقطته فى الشر ، ويجعل له فى شخصه ذاته موضوع فرح ، حتى يفرح الروح الشرير ضد الرب إذ يكون قد إستعاد صيده .

ولكن يقول البعض يكفى فقه أن نكرمه بالقلب والروح حتى ولو كان ذلك بطريقة مستقلة عن الأعمال، نحن نخطىء دون أن نفقد المخافة أو الإيمان . أو بمعنى آخر ، ندنس الرواج ولا نهين الطهارة ، يسكب المرء السم لأبيه وهو يحافظ على الاخلاص البنـــوى !

هؤلاء الناس سوف يطرحون فى جهنم دون أن تفقد المغفرة طالما كانوا يزعمون أنهم يخطئون دون أن يفقدوا المخافة .

كم نكون جهلاء إن لم نكمل التوبة وفى نفس الوقت نستمر فى رجاء مغفرة خطايانا ؛ ألسنا نقدم العملة ونمد ايضاً أيدينا إلى البضاعة ؟ ان الله جعل للغفـــرة هذا الثمن ويعرض علينا أن نشترى عدم العقاب بأن نقدم التوبة .فاذا كان التجار يفحصون قطع العملة التى تمثل الثمن المتفق عليه أولا، ويتأكدون أنها غير مسوحة أو مقروضة أو مزورة ، فاننا نعتقد أن الرب سوف

يبدأ بالتحقق من نوع التوبة قبل أن يمنحنا المكافأة العظيمة التى هى الحياة الأبدية .

ثم يتكلم القديس عن ضرورة التوبة الخالصـــة بالنسبة للموعوظين الراغبين فى نوال سر العماد . ثم فيقول :

إذا كنا نتوقف عن الخطية بعد العماد فقط ، فيكون ذلك عن ضرورة وليس برغبتنا الحـــرة . ولكن من يكون أكثر استحقاقاً للصلاح ، هل ذلك الذى لايسمح له بأن يكون شريراً ، أم ذلك الذى لايريد أن يكون شريراً ؟ الذى نأمره بأن يمتنع عن الجرائم ، أم الذى يجد فى امتناعه هذا مسرته ؟ إذن لايكفى أن نبعد أيدينا عن السرقة لأن الأبواب المتينة تمنعنا ؛ ولا نمنع عيوننا عن شهوة الفساد لأن حراس الأجساد التى نشتهيها يبعدوننا.

حاشا لله أن يفسر أحد كلماتى كأن الفرصة المعطاة له للتوبة تعطيه تصريحاً بالخطية . حاشا لله أن تكون وفرة رحمته حافزاً على جسارة البشر . لا تسول لأحد نفسه أن يكون شـــريراً بالأكثر لأن الله عظيم الرحمة .

فى العادة نجد أن الذين نجوا من الغرق مرة ، يبتعدون عن السفن وعن البحر ويمجـــدون صنيع الله الذى خلصهم ، لأنهم

يذكرون الخطر . انى أمدح خوفهم وأحب تحفظهم . أنهم يبتعدون عن الخطر الذى تعلموا أن يخافوه .

إذا كانت رحمة الرب تعطيك الوسيلة التى بها تحصل ثانية على ما فقدته ، فكن شكورا لهذه النعمة المتزايدة . لأن إعادة العطية المفقودة أعظم من العطية . ويحزننا أن نخسر أكثر من أن نكون لم نأخذ شيئاً بالمرة .

انك ترضى الرب بألا ترفض ما يقدمه لك . وإذا كنت تشك فى ذلك إقرأ ما يقوله الروح للكنائس : (رؤ ص ٢-٣). انه يلوم كنيسة أفسس لأنهم تركوا المحبة ، ويلوم كنيسة ثياتيرا لأنهم زنوا وأكلوا لحم ما ذبح للأوثان ، ويلوم كنيسة سردس لأن أعمالهم ناقصة ، ويلوم كنيسة برغامس لأنهم يعلمون تعاليم خاطئة ، انه يعنف كنيسة لاودكية لأنهم يضعون ثقتهم فى الغنى . ومع ذلك فهو يدعوهم جميعاً إلى التوبة بالرغم من تهديداته لهم . وبالطبع ما كان ليهددهم إذا لم يتوبوا ، إن لم يكن يغفر لهم فى حالة التوبة .

لا تشك ، فقد برهن فى موضع آخر عن وفرة رحمته ، إذ يقول : « هل يسقطون ولا يقومون أو يرتد أحد ولا يرجع » أر ٨ : ٤ . نعم انه هو الذى يفضل الرحمة على الذبائح : « إنى

أريد رحمة لا ذبيحة ومعرفة الله أكثر من محرقات » هو ٦:٦ .

ان السماء والملائكة الذين يسكنون فيها يفرحون بتوبة الإنسان .

« فاذهبوا وتعلموا ما هو . انى أريد رحمة لا ذبيحة . لأنى لم آت لأدعو أبراراً بل خطاة إلى التوبة » مت ٩ : ١٣ .

« أقول لكم انه هكذا يكون فرح فى السماء بخاطىء واحد يتوب أكثر من تسعة وتسعين باراً لا يحتاجون إلى توبة » لو ١٥: ٧

« هكذا أقول لكم يكون فرح قدام ملائكة الله بخاطىء واحد يتوب » لو ١٥ : ١٠ .

هيا أيها الخاطىء ، تشجع فها أنت تراهم يفرحون برجوعك.

فقدت المرأة درهماً ، فأخذت تبحث عنه ووجدته ، فدعت صديقاتها ليفرحن معها ؛ أليست هذه صورة الخاطىء الذى يعود إلى النعمة ؟

تضيع نعجة صغيرة يمتلكها راع . وما كان كل القطيع أغلى عنده من هذه النعجة الواحدة . فيبحث عنها وحدها ، هى وحدها التى يريدها ككل الآخرين . فيجدها أخيراً ويحملها على كتفيه إذ أنها تعبت جداً فى جولاتها هكذا .

أريد أيضاً أن أذكر ذلك الأب الحنون الذى ينتظر إبنه الضال ، وإذ يجده عارياً من كل شىء ولكنه تائب ، يستقبله بفرح ويذبح العجل المسمن ويحتفل به فرحاً فى وليمة . ولم لا ؟ لقد وجد هذا الإبن الذى كان قد فقده وأحس أنه عزيز لديه بالأكثر عندما وجده من جديد (أنظر لو ١٥: ٤ - ٣٢) .

ماذا يجب أن نفهمه من المثل؟ بديهى أنه الله . لا أب مثله ، وليس أحد حنوناً مثله . أنت إبنه: حتى وإن حدث أنك بددت ما أخذته منه ، حتى عدت عرياناً، فانه يقبلك طالما كنت عائداً، ويفرح بعودتك كثيرا أكثر مما يفرح بحكمة إبنه الآخر؛ ولكن بشرط أن تتوب من كل قلبك ، وأن تقارن جوعك بالوفرة التى يتمتع بها خدم أبيك ،وأن تترك قطيع الخنازير الدنس، وتذهب لمقابلة أبيك مهما كان غاضباً وتقول له : « يا أبى أخطأت إلى السماء وقدامك ولست مستحقاً بعد أن أدعى لك إبناً» لو١٥: ٢١.

إن الاعتراف بالخطايا يخفف كما أن أخفاءها يثقل . لأن الاعتراف علامة الرضا ، والاخفاء علامة التمرد .

• • •

ممارسة التوبة فى القرن الثانى

يقتضى قانون التوبة أن يحثو الإنسان ويتواضع ويخضع نفسه لنظام يجلب عليه الرحمة .

ففيما يختص بالملبس والمأكل ، كان يقتضى النظام لبس المسوح والرماد ، وأن يتسربل الإنسان بثياب داكنة ،وأن تترك النفس للحزن ، وأن تصحح الأخطاء السابقة بتداريب شديدة ؛ ومن جهة أخرى فان الأكل والشرب يلزم أن يكون بسيطاً للغاية إذ يتطلب خير الروح وليس لذة البطن .

ويقرن التائب صلواته بالأصوام ، ويئن ويبكى ويلتحب نهاراً وليلا نحو الرب إلهه ، يرتمى عند الكهنة ، ويركع متوسلا لدى الله ، ويكلف كل الإخوة أن يتشفعوا من أجله لكى ينال المغفرة . يفعل كل ذلك لتعزيز التوبة ، وليكرم الرب . فبقدر ما تنسحق نفسك ، بقدر ما يرحمك الله ، تأكد من ذلك .

ومع ذلك فانى افترض أن اغلبية الناس لايقومون بهذا الواجب أو يؤجلونه من يوم إلى يوم، لأنهم يخشون أن يظهروا علانية ، إذ أنهم يحسبون حساب الخجل أكثر مما يهتمون بخلاصهم ، مثل هؤلاء الناس مثل الذين إذا اعتراهم مرض فى

الأعضاء السرية ، يخفون حالتهم على الأطباء ، ويموتون هكذا بحياتهم . وليس من شك أن الله لا يرتضى الخجل .

لكن قل لى أيها المستحى ، أما كنت تحفظ جبينك عالياً وانت تخطىء ؟ فات تخفض جبينك الآن لكى يرفع الله غضبه عنك .

انك تعيش وسط إخوة يخدمون نفس السيد ، وكل شىء لديهم مشترك ، الرجاء ، المخافة ، الفرح ، الحزن ، الألم ، إذ ليس لهم سوى روح واحدة من عند الرب ، فلماذا تفكر أنهم يختلفون عنك ؟ لماذا تهرب من الذين يشتركون معك فى الزلل كما لو كانوا يفرحون بزلتك ؟ ان الجسد لا يمكنه أن يفرح بالسوء الذى يصيب أحد أعضائه ويلزم ضـــرورة أن يحزن كل الجسد ويعمل على شفاء العضو . حيثما يكون المؤمنون تكون الكنيسة والكنيسة هى المسيح . إذا لحينما تمد يديك نحو اخوتك ، فانك تلمس المسيح ، انك تتضرع إلى المسيح . وعندما يذرف الاخوة الدموع عليك فالمسيح هو الذى يتألم وهو الذى يطلب من الآب .

أتستطيع أن تخفى عن الله ما تخفيه عن معرفة الناس ؟ هل يمكن مقارنة رأى الناس مع حكم الله ؟ هل الأفضل أن يحكم علينا فى السر أم أن يغفر لنا علانية ؟

بالاضافة إلى الخجـــل الذى يشغل بالهم بالأكثر ، فانهم يخشون أيضاً أتعاب الجسد ، إذا لزم أن يعيشوا دون أن يستحموا ، محرومين من كل فرح ، فى خشونة المسوح والرماد ، وجوههم متغيرة من الصوم .

هل أتضرع إلى الله من أجل مغفرة خطايانا ونحن فى ملابس حمراء من برفير ؟ إذا كان ذلك الأمر مجدياً ، فها هو دبوس لتصفيف شعوركم ، وها هى بودرة لتنظيف أسنانكم ، وها هى مقصات من الحديد أو المعدن لترتيب أظافركم . أسرعوا بوضع الأحمر على خدودكم وشفاهكم . ابحثوا عن الحمامات اللذيذة ، زيدوا مصروفاتكم فى المصايف ، فى الحدائق أو على شاطىء البحر ، ابحثوا عن السمنة الزائدة التى تأتى من الأطعمة الفاخرة ، اشربوا الأنبذة القديمة . وان سألكم أحد لماذا تتنعمون هكذا فردوا عليه : « لقد أخطأنا ضد الله ، وإننا مهددون بالهلاك الأبدى . ولذلك نحن فى هذه الساعة فى قلق عسى أن نكون مقبولين لدى الله الذى أغضبناه بخطايانا ! » .

انظروا إلى الذين يسعون لكى يصلوا إلى مراكز المستشارين ، انهم لا يشعرون بخجل أو كلل ويتحملون الاتعـــاب المادية والمعنوية بل الإهانات أيضا لكى يصلوا إلى أهدافهم .

أما نحن عندما تكون أبدينا فى خطر فإننا نتردد فى احتمال ما يحتمله البعض من أجل منفعة مادية بسيطة . اننا نتأخر عن تقديم الصوم لله ، بينما يصوم الوثنيون دون أن يفرض عليهم أحد ذلك .

يقول الكتاب : « ويل للجاذبين الإثم بحبال البطل والخطية كأنه بربط العجلة » أش ٥ : ١٨ .

فتمثلوا أمامكم جسامة العقـــاب أولا حتى لا تترددوا فى استعمال الدواء . لماذا تتأخر فى الالتجاء إلى الدواء الذى تعرف أنه يجلب لك الشفاء ؟

† † †

أودع بدار الكتب تحت رقم ٤١٦١ لسنة ١٩٧١